الفكر الاجتماعي عند الامام يحيى بن حمزة العلوي

أ.م.د سعد إبراهيم العلوي

جهة النشر جامعة الملكة أروى

copyrights©2018

الفكر الإجتماعي

عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي (1270-1348م)

قراءة إجتما-فكرية

أ.م.د.سعد إبراهيم العلوي*

ملخص :

هدف البحث إلى قراءة وتحليل الفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي (1270-1348م)، والوقوف أمام معالمه وتحديد ملامحه وتعيين موقعه في تاريخ الفكر الإجتماعي العربي الإسلامي.

ولتحقيق الهدف قام الباحث بتحديد وتحليل الأسس الفكرية والشروط الإجتماعية – التاريخية والسياسية الدافعة لنشأة الفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي، وتصنيف قضاياه، وتبيان رؤيته للإصلاح الإجتماعي والفكري.

وقد أظهر الباحث دور كل من التكوين الفكري والمعرفي للإمام العلوي وجملة ممارساته الفكرية والإجتماعية والسياسية، بالإضافة إلى الواقع الإجتما-سياسي اليمني المأزوم حينها في نشأة الفكر الإجتماعي لديه.

وأوضح الباحث الصلة القائمة بين القضايا والمشكلات التي تقع ضمن دائرة فكر وتفكير الإمام يحيى العلوي وتلك التي يتضمّنها الفكر والتفكير الإجتماعيين وإثبات طابعها الإجتماعي وصلتها بالواقع الإجتماعي اليمني.

***أستاذ تأريخ الأفكار المشارك، عميد كلية التربية أرحب، جامعة صنعاء.**

مقدمة :

لا يوجد مجتمع من المجتمعات لا يمتلك رصيداً ما في الفكر الإجتماعي. فالفكر الإجتماعي يظل موجوداً طالما وجد البشر على ظهر الأرض. فهو يرتبط في النهاية بالمجتمعات الإنسانية والممارسات الإجتماعية.

ولكن -هناك تفاوت – في الكتابات التي تتعلّق بالفكر الإجتماعي من مجتمع لآخر، ومن دولة لأخرى، بحسب القدر من التطوّر والعمق الحضاري والثقافي والتاريخي الذي وصلت اليه هذه الدول والمجتمعات.(1)

وتعد الفترات التاريخية التي يواجه فيها أي مجتمع من المجتمعات أزمات عميقة وتحديات جسيمة من الفترات التي تتداخل فيها الامور وتختلط الرؤى، وتضطرب المرتكزات الإجتماعية. ويكون المجتمع حينها بحاجة إلى نوعية من أفراده كي تقوم بأدوار وأعمال تسهم في إصلاحه وتطويره نحو الأفضل.(2)

من هنا فإنه في مثل هذه الفترات المضطربة من تاريخ المجتمعات ينشأ الفكر الإجتماعي والذي تنتجه النخب الفكرية على إختلاف ألوانها وتوّجهاتها، وتنتشر وتتنوع الكتابات الفكرية التي تعرف إصطلاحاً بكتابات الفكر الإجتماعي.(3)

في ضوء ما سبق شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ذلك الحضور التاريخي والفكري لمفكر شامخ وعالم مجتهد موسوعي الفكر عزّ له نظير في تاريخ الفكر العربي الإسلامي وهو الإمام يحيى بن حمزة العلوي (1270-1348م) ذلك الذي وصفه الإمام الشوكاني بأنه "من أكابر الزيدية في الديار اليمنية، وله ميل إلى الإنصاف، مع طهارة لسانه وسلامة صدره، وعدم إقدامه على التكفير والتفسيق بالتأويل.. كثير الذب عن الصحابة وكان من الائمة العادلين..".(4) ويصفه باحث معاصر بالقول "يحيى بن حمزة موسوعة علمية نذر أن يكون له نظير .. إنه في الزيدية يناظر فخر الرازي عند الأشاعرة".(5) ووصلت عدد مصنفاته العلمية نحو مائة مصنفاً علمياً في مختلف ميادين الفكر والمعرفة.

ولقد حظى فكر الإمام يحيى بن حمزة بإهتمام كثير من الباحثين والدارسين الذين ينتمون لنظم معرفية مختلفة كالتفسير

والفقه والنحو والفلسفة والعلوم السياسية والعلوم التربوية.(6) حيث تعدّدت وتنوّعت الدراسات والتحقيقات والقراءات التي غطّت جوانب مختلفة من فكره: منها الفكر التربوي والفلسفي والسياسي والديني، الأمر الذي يشير إلى ثراء وتنوّع فكر الإمام يحيى بن حمزة والإعتراف بالمكانة البالغة الأهمية التي يحتلها في تاريخ الفكر العربي – الإسلامي.

وعلى الرغم من تنوّع الدراسات والقراءات التي تناولت فكر الإمام يحيى بن حمزة إلاّ أنها قد خلت من دراسة أو قراءة متخصصّة إجتماعية-تاريخية وإجتماعية-فكرية تتناول فكره الإجتماعي.

من هنا جاءت مشكلة الدراسة الراهنة والتي تبحث في قضية الفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة ويحاول الباحث من خلالها تحقيق هدف رئيس هو الوقوف أمام معالم ذلكم الفكر وتحديد ملامحه وتعيين قضاياه. وجاءت تحت مظلة هذا الهدف العام الأهداف الفرعية الأتية:

- تحديد وتحليل الشروط الفكرية والسياسية والتاريخية وتبيان دورها في نشأة الفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة.
- تصنيف القضايا والموضوعات في كتابات الإمام يحيى بن حمزة وتوضيح صلتها بقضايا الفكر والتفكير الإجتماعيين.
- عرض وتحليل رؤية الإمام يحيى بن حمزة للإصلاح الإجتماعي والفكري.

في ضوء ما تقدّم يمكن تحديد تساؤلات الدراسة فيما يلي:

- ما الشروط الإجتماعية – التاريخية والسياسية والأسس الفكرية التي انطلق منها الفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة؟
- ما القضايا التي تقع ضمن دائرة فكر وتفكير الإمام يحيى بن حمزة ؟ وما علاقتها بالفكر والتفكير الإجتماعيين؟

- ما المؤشرات الدالة على علاقة الفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة بقضايا ومشكلات مجتمعه؟
- ما العناصر التي وجهّت نظر الإمام يحيى بن حمزة لتقديم اراءه للإصلاح الفكري والإجتماعي؟

بناءً على تساؤلات الدراسة السابقة تتحدّد المنهجية الخاصة بها والتي تتمثّل في المنهج التاريخي ومنهج التحليل السوسيو-فكري واللذان يتوافقان مع هدف الدراسة الرئيس وكذلك الأهداف الفرعية. فالهدف الرئيس والأهداف الفرعية والتساؤلات المختلفة المرتبطة بهما سوف يتم التعامل معها منهجياً من خلال قراءة وتحليل الفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة في ضوء السياق الإجتماعي والثقافي الذي ظهر فيه، وفي ضوء الأوضاع الإجتماعية – التاريخية والشروط الفكرية والمعرفية التي أنتجته، وفي هذا الإطار تصبح قراءتنا للفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة مؤشراً على طبيعة علاقته بالمجتمع وبالقضايا الإجتماعية التي تناولها.

أولاً : الشـــــروط المعرفيـــــة – الفكريـــــة والإجتماعيـــــة – التاريخيـــة لنشـــأة الفكـــر الإجتمـــاعي عنـــد الإمـــام يحيـــى بـــن حمزة العلوي

(1) الشروط الفكرية والمعرفية :

ولـــد الإمـــام يحيـــى بـــن حمـــزة العلـــوي وكنيتـــه : أبـــو إدريـــس ، لقبـــه: المؤيـــد بـــالله عـــام 1270م بمدينـــة صـــنعاء. وينحـــدر مـــن بيـــت أســـرة الأئمـــة الزيـــديين الـــذين يشـــترطون للإمامـــة البلـــوغ فـــي العلـــم والمعرفـــة إلـــى درجـــة الإجتهـــاد المطلـــق، وهـــذا الشـــرط دفـــع هـــذه الأسرة على مر التاريخ إلى التوجه نحو العلم".(7)

والشـــيء اللافـــت للنظـــر فـــي شخصـــية الإمـــام يحيـــى بـــن حمـــزة، والـــذي كـــان لـــه الأثـــر البـــالغ فـــي تكوينـــه الفكـــري والمعرفـــي يتمثل في ذكاءه الحاد من جهة، وشغفه بالعلم من جهة ثانية.

ولقـــد تجلـــى ذكـــاءه الحـــاد فـــي حفظـــه للقـــرآن الكـــريم وســـرعة اســـتيعابه للكثيـــر مـــن العلـــوم والمعـــارف فـــي وقـــت قصـــير وفـــي مرحلـــة مبكـــرة مـــن عمـــره. ويؤكـــد الشـــوكاني بـــأن الإمـــام يحيـــى بـــن حمـــزة اشـــتغل بالمعـــارف العلميـــة وهـــو صـــبي فأخـــذ فـــي جميـــع انواعهـــا علـــى أكـــابر علمـــاء الـــديار اليمنيـــة. وتبحّـــر فـــي جميـــع العلـــوم وفاق أقرانه".(8)

أمـــا شـــغفه للعلـــم فيتمثّـــل فـــي هجرتـــه إلـــى مدينـــة حـــوث والتـــي درس علـــى يـــد علماءهـــا مختلـــف العلـــوم والمعـــارف كعلـــوم اللغـــة العربيـــة وعلـــم الكـــلام والســـيرة والفقـــه، بالإضـــافة إلـــى العلـــوم الأخـــرى مثـــل المنطـــق والتـــاريخ والفلســـفة وغيرهـــا مـــن العلـــوم الإنسانية والطبيعية.

كمـــا تجسّـــد شـــغفه للعلـــم فـــي أن يتفـــرغ لـــه تفرغـــا كليـــاً. حيـــث كـــان منشـــغلاً فـــي جميـــع اوقاتـــه بـــالعلم تصـــنيفاً وتأليفـــاً. وقـــد صـــنّف التصـــانيف الحافلـــة فـــي جميـــع الفنـــون .. ويـــروى أنهـــا زادت كراريس تصنيفه عن عدد أيام عمره.(9)

إنّ إهتمـــام الإمـــام يحيـــى بـــن حمـــزة فـــي دراســـة العلـــوم الدينيـــة بالإضـــافة إلـــى العلـــوم الأخـــرى كـــالعلوم الطبيعيـــة. فضـــلاً

عن علوم الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتاريخ. إن كل ذلك يشير إلى إنفتاحه على كل علوم ومعارف عصره. وهذا ما ساعده في أن يتصّف تكوينه الفكري والمعرفي بمواصفات موضوعية منها أنه حاملاً لمعارف وعلوم مختلفة ذات مصادر متنوعه وامتلاكه لثقافة موسوعية.

لقد استطاع الإمام يحيى بن حمزة بما يتميّز به من قدرات عقلية وملكات إبداعية أن يصل إلى مرتبة الإجتهاد المطلق.(10) كما وصل عدد مصنفاته العلمية نحو مائة مصنفاً علمياً في مختلف ميادين العلم والمعرفة.

إنّ مفكراً وعالماً بهذا التكوين الفكري والمعرفي، وبتلك القدرات الإبداعية الإستثنائية قياساً بعلماء ومفكري عصره لا يمكن أن تثير اهتمامه القضايا والمسائل الدينية وحدها من شعائر وعبادات وحدود وما اليها، ولا الفقه وأصوله وجملة العلوم الشرعية بل - قضايا الواقع الإجتماعي والسياسي- خصوصاً تلك التي تتعلق بالمصالح والحقوق العامة. بالإضافة إلى القضايا الكبرى الفكرية منها والمجتمعية التي تواجه المجتمع وتتطلّب القابلية على الإبداع والمقدرة العالية على التحليل والنقد.

(2) الدور السياسي والإجتماعي:

جاءت موافقة الإمام يحيى بن حمزة على الدعوة لنفسه إماماً بعد وفاة الإمام محمد بن المطهر لتشكل مرحلة تحوّل في حياته الإجتماعية والفكرية. ولم تكن قضية الدعوة للإمامة لتحتل أهمية رئيسية في حياة الإمام يحيى بن حمزة وقد كان زاهداً في الإمامة، سخّر نفسه وقدراته للعمل الفكري والإنشغال البحثي. ولكن كانت هناك جملة أسباب دفعته إلى القيام بالأمر ومنها:

- الواقع الإجتماعي والسياسي اليمني المضطرب والمأزوم في عصره.
- إنتشار الفساد ومظاهر الظلم الإجتماعي والإقتصادي وفي هذا يقول: "إن تلبي ما تلبست به من أمر الإمامة والدخول في الزعامة ما كان إلاّ من أجل ما ظهر في الأرض من الفساد في البر والبحر فبما كسبت ايدي

النـــاس، واســـتيلاء الظلـــم وتكالـــب الظلمـــة علـــى الخلق.(11)

- حاجــة المجتمــع إلــى إمــام وطلــبهم لــه لمــا يتمتــع بــه مــن صـــفات أخلاقيـــة وقـــدرات علميـــة وفكريـــة ومكانـــه إجتماعيــة وفــي مقــدمتهم نخبــة المجتمــع مــن أهــل الحــل والعقــد وفــي هــذا يقــول "ومــا كــان مــن ذلــك عــن عجــل وطــيش ولا فشــل، ولا مســارعة منــا إلــى زخــارف الــدنيا وشــهواتها.. بــل كــان عــن تــؤده، وترويــد نظــر وبصــيرة واضــحه، وإجمــاع مــن ســادات هــذا الــدهر، وإتفــاق مــن علمــاء الوقــت والعصــر، وأمــر مــن أولــي الحكمــة بعــد بــذل واســع الجــد والجهــد منــا فــي طلــب الرخصــة والإعتــذار فلــم نجد إلى ذلك سبيلاً يسقط الفرض..(12)

ويعتــرف الإمــام يحيــى بــن حمــزة بأهميــة الــدور الفكــري والمعرفــي بــل وتــأثيره علــى اداء دوره السياســي والإجتمــاعي فــي قيــادة المجتمــع "منصــب الإمامــة" حيــث يقــول "ثــم أنــي لــم أقــم هــذا المقــام العظــيم الــذي أرجــو فيــه التوفيــق والتســديد مــن الله تعــالى والإعانــة بلطفــه إلاّ بعــد احــرازي للعلــوم الدينيــة التــي تفتقــر اليهــا الأمــة مــن المباحــث الكلاميــة، والقواعــد الأصــولية، والأســرار القرانيــه والمعــاني الإعرابيــة، والمضــطربات الشــرعية الخلافيــة، مــع أن الله خصــني بخصــال والحمــدلله لا توجــد فــي غيــري، لــولا مــا نهــى الله عــن التزكيــة لــذكرتها، والرجــوى فــي الله عــز ســلطانه أن ينفع المسلمين بصالح مقصدي إن شاء الله تعالى".(13)

لقــد جــاءت موافقــة الإمــام يحيــى بــن حمــزة لتــولي منصــب الإمــام لتشــكّل الفرصــة الواقعيــة والوســيلة التــي تجعــل مــن دوره الإجتمــاعي والسياســي أكثــر ارتباطــاً بــالواقع المجتمعــي ومســتمداً منــه. فــي حــين أكســبه ذلــك المنصــب خبــرة واســعة بــالواقع الإجتمــاعي والسياســي لليمن. كمــا أتــاح لــه فرصــة تاريخيــة للإطــلاع والإقتــراب مــن دائــرة صــياغة ووضــع السياســات التشــريعية والإداريــة ومــا يترتــب منهــا مــن إجــراءات تنفيذيــة تكــون مســئولة فــي معظمهــا عــن صــنع قضــايا ومشــكلات الواقــع الإجتماعي.

مــن هنــا ســاعدت الممارســة السياســية والإجتماعيــة للإمــام يحيــى بــن حمــزة مــن موقعــه كإمــام فــي التعــرّف عــن قــرب بطبيعــة

ونـوع المشـكلات التـي يعـاني منهـا مجتمعـه والمسـئولة بالتـالي عـن تـدّهور أوضـاعه وهـذا مـا دفعـه للتفكيـر فـي تلـك المشـكلات التـي أفسـح لهـا جـزءاً كبيـراً مـن كتاباتـه، وأصـبحت مـدار بحـث وتحليـل من قبله.

(3) أوضـاع المجتمـع اليمنـي فـي عهـد الإمـام يحيـى بـن حمزة

شـهد المجتمـع اليمنـي فـي عهـد الإمـام يحيـى بـن حمـزة أوضـاعاً مضـطربة ومتـدهورة علـى الأصـعدة السياسـية والإجتماعيـة والإقتصـادية. ولقـد تجسّـدت مظاهرهـا فـي إنتشـار الحـروب والقتـال سـواءً تلـك التـي دارت بـين الإمـام يحيـى بـن حمـزة والائمـة المنافسـين لـه "حيـث وقـع بـين أتبـاع الإمـام يحيـى بـن حمـزة وأتبـاع مـن عارضـه حـرب ضـروس سـالت فيهـا الـدماء وأزهقـت النفـوس".(14) أو تلـك التـي خاضـها الإمـام يحيـى مـع الإسـماعيلية والتـي طالـت مـدتها ولـم تحسـم بالإضـافة إلـى حروبـه مـع الدولـة الرسـوليه.(15) وكـان لهـذه الحـروب أثارهـا الخطيـرة التـي هـددّت مـن تماسـك البنـاء الإجتمـاعي فـي المجتمـع اليمنـي آنذاك.

كمـا أحتـل الفسـاد مسـاحة واسـعة بـين أفـراد المجتمـع فضـلاً عـن إنتشـار الظلـم والتعصَّـب المـذهبي والجمـود الفكـري علـى حساب تقاليد الإجتهاد وإعمال العقل والإنفتاح الفكري.

إنّ واقعـاً إجتماعيـاً وسياسـياً وفكريـاً مضـطرباً ومتـدهوراً كواقـع المجتمـع اليمنـي فـي عهـد الإمـام يحيـى بـن حمـزة لا يمكـن إلاّ أن يـدفع مفكرنـا بمـا يمتلكـه مـن سـلطة معرفيـة علـى درجـة عاليـة مـن الثـراء والتنـوع، ومـا يشـغله مـن موقـع اجتمـاعي وسياسـي ودينـي (الإمامـة) نحـو التفكيـر بمـا آلـت إليـه أوضـاع مجتمعـه مـن تشـظي وفـتن وفسـاد وتعصـب مـذهبي والبحـث فـي أسبابها وإقتراح الحلول والمقاربات المناسبة لها.

نخلـص مـن كـل مـا سـبق إلـى أن هنـاك شـروطاً فكريـة – معرفيـة وإجتماعيـة تاريخيـة تقـف وراء نشـأة التفكيـر والفكـر الإجتمـاعيين عنـد الإمـام يحيـى بـن حمـزة تـتلّخص فـي النقـاط التالية:

أ) المكانة الفكرية للإمام يحيى بن حمزة كعالم مجتهد ومفكر مجدّد ومبدع والتي لا يمكن إلاّ أن تدفعه لاداء دوره السياسي والإجتماعي والفكري المتمثل في النظر والتفكير بما أصاب مجتمعه من مشكلات والعمل على تحديد أسبابها وتحليل ونقد مظاهرها وتقديم رؤيته للإصلاح المجتمعي والفكري.

ب)واقع المجتمع اليمني المضطرب والمتدهور وما أفرزه من قضايا ومشكلات.

ج) الممارسة السياسية والإجتماعية للإمام يحيى بن حمزة "منصب الإمامة"، وما أكتسبه خلالها من خبرات بالواقع الإجتماعي والسياسي اليمني في عهده، وما أتاحت له من فرصة للتعرّف عن قرب بمشكلات وقضايا ذلك الواقع.

لاشك أن توّفر شروط فكرية – معرفية – وإجتماعية – تاريخية تشكل دافعاً قوياً لنشأة الفكر والتفكير الإجتماعي، ولكنها ليست كافية للإستنتاج بأن الإمام يحيى بن حمزة يمتلك فكراً إجتماعياً.

من هنا يستوجب علينا الإنتقال إلى مستوى أخر من القراءة والتحليل والذي نحاول من خلاله تصنيف وتحليل القضايا التي تقع ضمن دائرة إهتمام وتفكير الإمام يحيى بن حمزة وتبيان مدى صلتها بالفكر والتفكير الإجتماعيين.

ثانياً : قضايا المجتمع اليمني وموقعها من فكر الإمام يحيى بن حمزة

تقف أمام هذا المحور مجموعة من الاسئلة وهي: ما نوع القضايا التي أفرزها الواقع الإجتماعي – التاريخي في عهد الإمام يحيى بن حمزة؟ وهل تلك القضايا تقع ضمن دائرة إهتمام الفكر الإجتماعي؟

لمناقشة وتحليل القضايا المعروضة أعلاه كان لا بد لنا من العودة إلى إنتاج الإمام يحيى الفكري للكشف عن القضايا التي تقع ضمن دائرة اهتمامه وتفكيره. بالإضافة إلى البحث

عن العوامل الأخرى كالواقع الإجتماعي – التاريخي والممارسات السياسية والإجتماعية للإمام يحيى ودورهما في أن تنال تلك القضايا نصيبها من الإهتمام والتحليل والمقاربة من قبله.

في إطار قراءتنا لما هو متاح من إنتاج فكري للإمام يحيى بن حمزة في شكل كتب ورسائل ومخطوطات أمكن لنا أن نرصد 3 ثلاث قضايا وعلى النحو الآتي:

(1) الواقع الإجتماعي والسياسي المضطرب:

شهد اليمن في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وحتى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي تنافس وصراع ثلاث قوى سياسية على إمتداد رقعته الجغرافية. وتتمثّل الأولى بالدولة الرسولية وعاصمتها تعز (1228-1454م) والثانية الدولة الإسماعيلية وكان مركزها بلاد حراز. أما الثالثة فهي الدولة الزيدية وعاصمتها صعدة (897-1962م). وهو صراع قديم له أبعاده السياسية والإقتصادية والمذهبية قبل صعود الإمام يحيى بن حمزة إلى سدة الحكم.

من هنا واجه الإمام يحيى بن حمزة التحدّي الأول والمتمثّل بالدولة الرسولية في صورة حروب هدفها التوسع والسيطرة على مزيد من الأراضي والمناطق وتعزيز النفوذ وأتخذ الحرب بين الدولتين طابعاً سياسياً – إقتصادياً.(16)

في حين أتخذ التحدّي الثاني مع الدولة الإسماعيلية صورة حروب ذات طابع عقائدي ومذهبي وفكري.

بالمقابل برز للإمام يحيى بن حمزة تحدّي ثالث يتمثل في الائمة المنافسين له والذي دعا كل منهم في جهته وهم: علي بن صلاح بن تاج الدين (ت1329م) والواثق بالله المطهر بن محمد بن المطهر يحيى (ت1369م) وأحمد بن علي بن أبي الفتح الديلمي (ت1349م).(17)

لقد شكَّل هؤلاء الدعاة معارضة حقيقية للإمام يحيى بن حمزة أنتجت بدورها الكثير من الحروب والصراعات وأفرزت حالة من عدم الإستقرار الإجتماعي والتدهور

الإقتصادي. حيث يصف المؤرخ الأكوع تلك الحروب بـ "حروب ضروس سالت فيها الدماء وأزهقت النفوس" وبالمقابل كان لحالة عدم الإستقرار الإجتماعي والسياسي تأثيراتها على الأوضاع الإقتصادية التي غلب عليها الفقر وقلة الإنتاج وسوء الأحوال المعيشية.(18)

(أ) الفساد والظلم :

اكتسبت قضية الفساد أهميتها في فكر الإمام يحيى بن حمزة إنطلاقاً من إدراكه العميق لدورها ومسئوليتها في ما آلت اليه الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية من تدّهور وإنتشار لمظاهر الفقر وأشكال الظلم وهذا ما دفعه إلى الدعوة لنفسه إماماً وبقوله "وإن تلبي ما تلبست به مني أمر الإمامة والقبول في الزعامة ما كان إلاّ من أجل ما ظهر في الأرض من الفسادوفي البر والبحر...".(19)

كما تميزّت أوضاع المجتمع اليمني في عهد الإمام يحيى بن حمزة بإتساع نطاق الظلم ليلقي بظلاله على قطاع واسع من أفراد المجتمع. وهنا نجد الإمام يحيى بن حمزة يميز بين حالتين ذات صلة بمسألة الظلم تتمثّل الأولى بإنتشار الظلم كظاهرة مسيطرة في المجتمع بقوله "استيلاء الظلم.." في حين تتمثل الثانية بالأفراد الذين يمارسون الظلم وإتساع نطاق ممارساتهم بحق المجتمع بقوله " تكالب الظلمة على الخلق..".(20)

(ج) النقل والتقليد والتعصب المذهبي:

إنّ من أهم المشكلات التي شغلت مساحه من تفكير الإمام يحيى بن حمزة وخصص لها جزءً من كتاباته تتمثل بإنتشار النقل والتقليد والتعصب المذهبي وسيطرته على الفكر الإسلامي وفي المقدمة الفقه الإسلامي على أيدي المقلدّين والمتعصبين.

وبدلاً أن يتحوّل الفقه الإسلامي من اداة إيجابية فاعله تخدم المجتمع تحوّل على ايدي هؤلاء المقلدين والمتعصبين إلى أداة سلبية معطّلة.

ولأن الفقه على صله عميقة بحركة المجتمع فكان لابد من وجود فكر فقهي متحرّر من أساليب النقل والتقليد ويمتلك صفات الإجتهاد والتجديد وإعمال العقل يساعد على تأصيل العدل والعدالة والإنفتاح الفكري والإنتقال بهما من الإطار النظري إلى الواقع العملي.

(د) ضعف التربية الإسلامية :

ليست الحروب والفتن وحدها من دفعت الإمام يحيى بن حمزة للتفكير بما آلت اليه أوضاع مجتمعه من تشظي وإنقسامات حادة ولكن -كان لهيمنة الجهل والأمية الأبجدية- فضلاً عن إنتشار الأمراض الإجتماعية مثل: المنازعات المستمرّة بين أفراد المجتمع، والإعتداء على حقوق الآخرين، والإعراض عن الأمر بالمعروف وضعف الوازع الديني والأخلاقي.

من هنا أتجهت أنظار الإمام يحيى بن حمزة نحو الواقع التربوي الذي وجده في حالة من التردي والضعف ومسئولاً بالتالي عن ظهور تلك الممارسات الإجتماعية السلبية المناقضة للقيم والأخلاق والتشريعات التي جاء بها القرآن الكريم.

نخلص من كل ما تقدم إلى أن القضايا التي شغلت مساحة من اهتمام الإمام يحيى بن حمزة كالفساد والظلم والمنازعات والتعصب المذهبي وضعف التربية الإسلامية، ذات صلة وثيقه بالفكر والتفكير الإجتماعين.

ثالثاً : رؤية الإمام يحيى بن حمزة للإصلاح الإجتماعي

أدرك الإمام يحيى بن حمزة من خلال ممارساته الإجتماعية-سياسية والفكرية، وبعد تحديده وتشخيصه لأوضاع ومشكلات المجتمع اليمني في عهده، أنها ليست مشكلات وأوضاعاً حتمية، وإنما لها أسباب قد توافرت وبالتالي فإنّ مسألة إزالتها والقضاء عليها يعد أمراً ممكناً إن توافرت شروط إزالتها.

ومن واقع كتاباته الفكرية يمكن رصد رؤية الإمام يحيى بن حمزة للإصلاح من خلال الآتي:

1) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يعد مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المبدأ الرابع من المبادئ الخمسة في الفكر الزيدي (التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إثبات الإمامة في آل البيت). كما وأنه يُعد المبدأ الخامس من مبادئ الفكر المعتزلي (التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).(21)

والإمام يحيى بن حمزة بحكم تكوينه الفكري وممارسته الفكرية والعملية وفي ضوء إنتاجه العلمي يُعد مفكراً زيدياً-معتزلياً جمع بين الجانب النظري-الكلامي الذي تميز به المعتزلة والفكر المعتزلي والجانب العملي – الواقعي الذي أشتهر به الزيدية والفكر الزيدي.(22)

وبالنظر إلى ما رصده الإمام يحيى بن حمزة في مجتمعه من مشكلات إجتماعية في صورة منازعات بين أفراد المجتمع وإعتداء على حقوق الأخرين.

لذا فإنه قد أفرد لها رؤيته لمعالجتها وإصلاحها عن طريق إهتمامه ببيان الحقوق اللازمة للمسلمين على بعضهم البعض، بالإضافة إلى إهتمامه بالآداب الإجتماعية والتربوية المختلفة.

ويعد مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المبادئ الإسلامية التي أستشعر الإمام يحيى ضرورة تفعيله وتحويله إلى واقع عملي لكي يتمكن المجتمع المسلم من إصلاح أوضاعه.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يقول الإمام يحيى بن حمزة :"قطبان من أقطاب الدين، وهما المهمان اللذان بعث الله بهما جميع النبيين، فلو طوي بساطهما، وأهمل رعاية حفظهما لتعطّلت النبوة، وأضمحلت الديانة وعمت الفتنة، وفشت الظلالة وشاعت الجهالة وأنتشر الفساد، وأتسع الخرق وخربت البلاد".(23)

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكي يكون مؤثراً وفاعلاً فينبغي أن يحمل صفة التدّرج بحيث يبدأ بالقول والموعظة الحسنة والإقناع الهادئ مروراً إلى التعنيف اللفظي وأنتهاءً بالحبس وفرض العقوبات.

وحول من يقوم لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الإمام يحيى بن حمزة يحدّد ذلك بحسب نوع المهمة أو القضية، وبما يتناسب لتلك المهمة من أدوار دينية وسياسية واستراتيجية يضطلع بها الأفراد. فهناك من المهام لا يقوم بها إلا الأئمة مثل إستخدام القوة العسكرية وتجييش الجيوش لهذا الغرض والدفاع عن أراضي الدولة الإسلامية وحماية الإسلام. بالإضافة إلى إقامة الحدود التي لا يحق لغير الإمام القيام بها.(24)

وهناك من المهام ما يقوم به الائمة وغيرهم من أفراد المجتمع مثل الإصلاح بين الناس وبناء المساجد وإصلاح الطرق. بينما يحق لكل فرد مسلم النهي عن المنكر في كل ما كان قادراً عليه أوله الولاية والقوامة عليه.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في رؤية الإمام يحيى بن حمزة ليس حقاً عاماً يستطيع كل مسلم ممارسته وإنما هو قاصر على اللذين يعلمون، يعلمون ماهية المعروف وماهية المنكر ثم يعرفون كيف يمارسون الأمر والنهي، ومتى تكون الشدة، وأيان يكون

اللين. حتى لا يكون الأمر بالمعروف سبباً إلى منكر، أو يكون النهي عن منكر سبباً إلى قطع معروف.

(2) إصلاح الفكر

لقد تبيّن للإمام يحيى بن حمزة بعد قراءته التحليلية – النقدية لمشكلات وأوضاع مجتمعه مقدار العلاقة القائمة بين التعصب المذهبي والجمود الفكري وسيطرته على مفاصل الحياة الفكرية والإجتماعية وبين إنتشار الحروب والفتن وغياب الإستقرار الإجتماعي.

وبعد عشرات السنين من الحرب الضروس التي خاضها الإمام يحيى بن حمزة مع الإسماعيليين وما خلفته من دمار وإنهيار إقتصادي وإضطراب إجتماعي توّصل إلى أن الصراع مع الإسماعيلية لا يتم عن طريق الحرب والقتل وإنما بالفكر والمنطق وبالإنتصار للعقل وبالحوار المفتوح.(25)

إن هذه الرؤية وهي تصدر من مفكر عربي إسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي تمتلك الأسبقية الزمنية والفكرية ليس على مستوى الفكر العربي-الإسلامي بل على مستوى الفكر الإنساني. وتشكّل واحداً من أهم المواقف في سلسلة الفكر الإسلامي المستنير وتعكس الطابع العلمي للتفكير المستنير.

ولإحلال الحوار المفتوح والإنتصار للعقل محل الحرب والقتل فإن ذلك الأمر يتطلب ارساء تقاليد فكرية تقوم على نبذ التعصّب المذهبي والدعوة إلى الإجتهاد وإعمال العقل والإنفتاح الفكري وبذلك تتم عملية تصحيح العلاقة بين الفكر والمجتمع في بعدها الإيجابي. وهذا كله يدخل ضمن مشروع إصلاح الفكر والذي تجسّد في الكتابات الفكرية للإمام يحيى بن حمزة والتي عكست تقديره لآراء الأخرين وتصويبها على إختلافها في المسائل الاجتهادية وأرساءه إسلوباً رفيعاً في الجدل نأى به عن الخوض في الباطل وتكفير فرق المسلمين، وعدم إستنكاره لتعدّد الآراء والأفكار وتنوّع المناهج، وارتكانه إلى العقل وما يعنية ذلك الإرتكان من المرونة والتفتح وإتساع الأفق.

إن إحلال التقارب الفكري والعقائدي محل التناحر والخلافات والإقتتال هو ما تدعوا اليه كتابات الإمام يحيى بن حمزة وهذه الكتابات في مضامينها وأبعادها وأهدافها تمثّل مشروعاً للإصلاح الفكري ولكن لم تتوّفر له الشروط الموضوعية ليتحول إلى واقع عملي.

(3) الإصلاح التربوي:

نظراً لإنتشار الكثير من الممارسات الإجتماعية المناقضة للقيم والأخلاق والتشريعات التي جاء بها القرآن الكريم.

لذلك أتجهت جهود الإمام يحيى بن حمزة نحو التربية والتربية الإسلامية على وجه الخصوص. لما لها من أثر عميق في حياة الفرد والمجتمع، ومن دور في إعداد الإنسان الصالح وفقاً للقيم الإسلامية الشاملة الكفيلة بتعديل السلوك وإصلاح النفوس.

من أجل ذلك أفرد الإمام يحيى بن حمزة عدد من المؤلفات التي أتجهت لمعالجة مسائل التربية إنطلاقاً من الأهمية التي تمتلكها في إصلاح الفرد والمجتمع.

وفي إطار الرؤية الإصلاحية للإمام يحي فإنه يولي إهتماماً لأربعة أنواع من التربية ويحدّد صفاتها وتأثيرها وإنعكاساتها على الإنسان المسلم وهي:

- التربية الروحية.
- التربية الخلقية.
- التربية العقلية.
- التربية الإجتماعية

ولكل نوع من أنواع التربية مجاله الحيوي وطبيعة تأثيره ودوره في تشكيل وإعادة تشكيل الفرد المسلم والمجتمع المسلم وإصلاحهما على المستوى الروحي والقيمي والأخلاقي والمعرفي والإجتماعي.(26)

كما يقف الإمام يحيى بن حمزة أمام وسائط التربية ويشير إلى دورها في بناء الفرد المسلم وتقويم سلوكه وأخلاقه ومنها الأسرة، المسجد، الهجر العلمية، الكتاتيب.

ويولي الإمام يحيى بن حمزة الأسرة أهمية استثنائية وتعتبر لديه من أهم الوسائط التربوية التي تدفع إلى الوسائط الأخرى وتدّل عليها وفي ذلك يقول: أعلم أن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش، ومائل إلى ما يمال به اليه، فإن عود الخير تعوده ونشأ عليه وسعد في الدنيا والأخرة، وشارك في ثوابه أبواه، وكل معلم ومؤدب وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه كالأب والوصي والقائم بمصالحه ومهما كان الأب يحرسه من نار الدنيا، فإن يصونه من نار الأخرة أولى وأحق، وصيانته تكون بتهذيبه وتأديبه وتعليمه محاسن الأخلاق وشريف الشيم، وتختلف به الآداب بإختلاف أوقاته وأحواله في التدريج".(27)

نخلص من كل ما تقدم إلى أن الواقع الإجتماعي والسياسي المأزوم وطبيعة المشكلات التي أنتجها ذلك الواقع ومنها: الحروب، والأزمات الإقتصادية، والتعصب المذهبي، وضعف التربية الإسلامية كان لها الدور الواضح في نشأة الفكر الإجتماعي عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي، ولم يكن بإمكانه وهو بذلك التكوين الفكري والمعرفي والموقع الديني والسياسي الذي يشغله (الإمامة) إلا أن يتصدى لتلك المشكلات بعد أن يشبعها قراءة وتحليلاً مقترحاً لها الحلول والمعالجات في صورة رؤية للإصلاح الإجتماعي والفكري تعبّر عن مستوى التطوّر التاريخي – الإجتماعي والمعرفي لعصره ولمجتمعه (المجتمع اليمني في القرن الرابع عشر الميلادي).

خاتمة واستنتاجات:

أثبتت القراءة الإجتما-فكرية التي خضع لها فكر الإمام يحيى بن حمزة العلوي أنه يمتلك فكراً إجتماعياً وبالإمكان تصنيفه كمفكر إجتماعي.

ولكن –أن يصيغ المفكر رؤيته - لإحلال التقارب الفكري والمذهبي محل التناحر والخلافات والإقتتال، وإحلال الحوار المفتوح محل الصراعات والحروب، والنظر إلى التقارب الفكري والمذهبي كوسيلة رئيسية من وسائل الإستقرار الإجتماعي فتلك تعد خلاصة الخلاصة والطفرة الابداعيه في فكر الإمام يحيى بن حمزة وجديرة بأن تمتلك أسبقية زمنية وفكرية على مستوى الفكر العربي الإسلامي في العصر الوسط وصولاً للعصر الحديث.

وكان بإمكان تلك الرؤية في حال توافر الشروط الموضوعية أن تتحوّل من الإطار النظري إلى الواقع العملي ولكن كان لغياب تلك الشروط الأثر الواضح في إستمرار مشروع الجهل والتعصب المذهبي والإقتتال مقابل مشروع العقل والحوار والتقارب الفكري والمذهبي والسلم الذي دعا له الإمام يحيى بن حمزة العلوي.

أكثر من سبعة قرون تفصلنا عن الفترة التاريخية التي ظهر فيها الإمام يحيى بن حمزة ولا زالت القضايا التي وقف أمامها تمتلك حضورها في الواقع اليمني والواقع العربي الراهن ولا زالت الرؤية التي دعا اليها بحاجة إلى أن تتبلور في صورة مشروع للإصلاح والتحديث والانتقال بالمجتمع اليمني من مرحلة الجمود والتخلف والحروب إلى مرحلة التقدم والتغيير الإجتماعي.

الهوامش:

1- سليم بركات: تطوّر الفكر الإجتماعي العربي، دمشق، 1998م، ص(40).

2- أفراح جاسم محمد: صورة المثقف العربي في ذهنية الواقع، مجلة (إضافات)، الجمعية العربية لعلم الإجتماع، العدد (21،22)، بيروت، خريف وشتاء 2013/2012م، ص(28).

3- صالح سليمان عبدالعظيم: الفكر الإجتماعي في دولة الإمارات العربية المتحدة، غانم محمد غباش نموذجاً، مجلة شئون إجتماعية، الجامعة الأمريكية بالشارقة، العدد (89)، المشاركة 2005م، ص(29).

4- محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع، ج2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1990م، ص(42).

5- أحمد محمد صبحي: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة واراءه الكلامية، ط1، منشورات العصر الحديث، 1990م، ص(78).

6- هناك عدد من الدراسات والتحقيقات التي تغطي جوانب مختلفة من فكر الإمام يحيى بن حمزة وعلى سبيل المثال لا الحصر:

- عبدالله حسن الرازحي: الفكر التربوي عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة صنعاء، 2002م.
- أحمد محمد صبحي: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وأراءه الكلامية، ط1، منشورات العصر الحديث، 1990م.
- أحمد محمد صبحي: الزيدية، دار المعارف، الاسكندرية، 1988م.
- إمام حنفي سيد عبدالله : نظرية الإمامة في الفكر الزيدي. دراسة مقارنه بين مذهبي الإماميين عبدالله بن حمزة ويحيى بن حمزة، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، 2006م.
- محمد عثمان إبراهيم: منهج يحيى بن حمزة العلوي في دراسة العقيدة مع تحقيق كتابه "النهاية في الوصول إلى علم حقائق الأصول. ج2، رسالة ماجستير، كلية العلوم، جامعة القاهرة، 2015م.
- ملك الأحمد : منهج الإمام يحيى بن حمزة العلوي ت(749هـ) في كتابه: المنهاج في شرح جمل المزجاجي، مكتبة المنهل، بغداد، ط2، 2004م.

7- محمد الكمالي: الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وأثره في الفكر الإسلامي، ط1، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، 1991م، ص(18).

8- محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع، مصدر سابق، ص(120).
9- محمد بن علي الشوكاني: المصدر السابق، ص(68).
10- تعريف الإجتهاد المطلق: الإجتهاد عند الفقهاء هو قدرة المجتهد وسعيه في طلب العلم بأحكام الشريعة اما الإجتهاد بمعناه اللغوي العام يشمل نيل التوسع والإجتهاد من العلماء في عمل التحقيقات العلمية النظرية والعملية.
ويعد الإجتهاد المطلق من أعلى مراتب الإجتهاد وهو الذي لا يلتزم فيه المجتهد لبيان حكم شرعي في أمر من الإمور المتعلقة بأفعال العباد والبلاد بمنهج لغيره وإنما يضع منهجه ويتخذ اصوله وطرق استنباطة للحكم الشرعي من دليله الشرعي وهذا الإجتهاد المطلق يشمل كل مسائل أحكام الفقه الإسلامي.
وتعد مرتبة المجتهد المطلق درجة علمية في المرتبة الأولى ولا يتحقق الإجتهاد المطلق إلا بتوفر مجموعة شروط وصفات لدى العالم الذي وصل إلى مرتبة الإجتهاد المطلق وهو : معرفة القرآن الكريم فقهاً ومعنى وحكماً والسيرة النبوية، والإجماع، القياس.
11- عبدالله حسن الرازحي: الفكر التربوي عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني، رسالة ماجستير، 2002م، ص(58).
12- وصايا الإمام يحيى بن حمزة، الإمام يحيى بن حمزة (مخطوط).
13- وصايا الإمام يحيى بن حمزة (مخطوط).
14- إسماعيل بن علي الأكوع: هجر العلم ومعاقلة في اليمن، ج1، دار المفكر المعاصر، بيروت، 1995م، ص(62).
15- محمد الكمالي: الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، مصدر سابق، ص(42).
16- وصايا الإمام يحيى بن حمزة (مخطوط).
17- عبدالله الرازحي: الفكر التربوي عند الإمام يحيى بن حمزة... مصدر سابق، ص(164).
18- فضل علي أحمد أبوغانم: القبيلة والدولة في اليمن، ط1، دار المنار، القاهرة، 1990م، ص( ).
19- عبدالله الرازحي : الفكر التربوي عند الإمام يحيى بن حمزة ، مصدر سابق، ص(58).
20- المصدر السابق، الصفحة نفسها.
21- عبدالعزيز المقالح: قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط2، 2008م، ص(114).
22- أحمد محمد صبحي: الإمام المجتهد يحيى بن حمزة واراءه الكلامية، القاهرة، ص(72).
23- وصايا الإمام يحيى بن حمزة (مخطوط).
24- وصايا الإمام يحيى بن حمزة (مخطوط).

25- عبدالعزيز المقالح: قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة، مصدر سابق، ص(17).
26- عبدالله الرازحي : الفكر التربوي عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي، مصدر سابق، ص(167).
27- المصدر السابق نفسه، ص(169).

المراجع:

1- الأحمد ملك (2004): منهج الإمام يحيى بن حمزة العلوي في كتابه : المنهاج في شرح جمل المزجاجي، مكتبة المنهل، بغداد.
2- أبو غانم فضل علي أحمد (1990): القبيلة والدولة في اليمن، ط1، دار المنار، القاهرة.
3- الرازحي عبدالله حسن (2002): الفكر التربوي عند الإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء.
4- الشوكاني محمد بن علي (1990): البدر الطالع، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
5- الأكوع اسماعيل بن علي (1995): هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت.
6- الكمالي محمد (1991): الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وأثره في الفكر الإسلامي، دار الحكمة اليمانية، صنعاء.
7- المقالح عبدالعزيز (2014): قراءة في فكر الزيدية المعتزلة، ط2، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.
8- بركات سليم (1998): تطور الفكر الإجتماعي العربي، دمشق.
9- جاسم محمد أفراح (2013): صورة المثقف العربي في دهنية الواقع، مجلة (إضافات) الجمعية العربي لعلم الإجتماع، العدد (22،21)، بيروت.
10- سيد إمام حنفي (2006): نظرية الإمامة في الفكر الزيدي، دراسة مقارنه بين مذهبي الإمام عبدالله بن حمزة ويحيى بن حمزة، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت.
11- صبحي أحمد محمد (1990): الإمام المجتهد يحيى بن حمزة واراءه الكلامية، منشورات العصر الحديث، القاهرة.
12- صبحي أحمد محمد (1988): الزيدية، دار المعارف، الاسكندرية.
13- عبدالعظيم صالح سليمان (2005): الفكر الإجتماعي في دولة الإمارات العربية المتحدة، غانم محمد غاش نموذجاً، مجلة شئون إجتماعية، الجامعة الأمريكية، العدد (89)، الشارقة.
14- وصايا الإمام يحيى بن حمزة (مخطوط).